مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 17، العدد 01، 15 جانفي 2021، ص ص786-798

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

قراءة تاريخية نقدية في الدراسات الأنثربولوجية الاستعمارية

Critical historical reading of colonial anthropological studies

د. بوقرين عيسى*

جامعة عمار ثليجي– الأغواط– الجزائر–

a.bougrine@lagh-univ.dz

تاريخ الاستلام: 2020/06/04 تاريخ القبول: 2020/08/29

ملخص:

لاشك أن الاستعمار بكل أشكاله القديمة و الحديثة، قد وظف كل الأساليب من اجل السيطرة و الهيمنة على الشعوب الضعيفة، و بقدر توظيفه للسلاح كعامل حاسم للإحتلال، ما كان ليتم ذلك دون اكتشاف و دراسة هذه المجتمعات، عاداتها و تقاليدها، ثقافاتها و أنماط معيشتها، و حتى إختلاف ألسنتها و دياناتها، و هو ما سمح بظهور علم جديد يدعى الأنثربولوجيا.

في هذه الدراسة نهدف إلى نقد الدراسات الأنثربولوجية الاستعمارية ، و معرفة طبيعة العلاقة بين الأنثربولوجيا و الاستعمار، و نفي أو تأكيد أن الأنثربولوجيا علم استعماري، كما نبحث في مساهمة الانثربولوجيا في دعم الاستعمار، و مدى استفادة الأنثربولوجيا من الحركة الاستعمارية، و في الجهة المقابلة هل قدمت الانثربولوجيا أي أي منفعة للشعوب المستعمرة؟ هل للدراسات الأنثربولوجية الاستعمارية أي دور في ما تعيشه مجتمعات النصف الجنوبي من الكرة الأرضية حاليا من تقسيم عرقي و أحيانا طائفي؟

الكلمات الدالة: الأنثربولوجيا، الاستعمار، السيطرة، الهوية، الحضارة .

Abstract:

There is no doubt that colonialism, in all its old and modern forms, has employed all methods to control and dominate vulnerable peoples, and to the extent that it employs weapons as a decisive factor for occupation, it would not have been possible to do so without discovering and studying these societies, their customs and traditions, their cultures and lifestyles, and even different tongues and religions, which allowed the emergence of a new science called anthropology.

In this study we aim to know the nature of the relationship between anthropology and colonialism, to deny or confirm that anthropology is a colonial

* **المؤلف المرسل:** بوقرين عيسى، **الايميل:** a.bougrine@lagh-univ.dz

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

science, as well as the contribution of anthropology to the support of colonialism, the extent to which anthropology benefits from the colonial movement, and on the other hand, has anthropology provided any benefit to colonial peoples? Does colonial anthropological studies have any role in the ethnic and sometimes sectarian division of the southern hemisphere societies?
Keywords: Anthropology, Colonialism, Domination, Identity, Civilization

مقدمة:

يقال أنه إذا كان هناك من علم إنساني بمعزل عن إعادة النظر، فذلك العلم هو حتما الانثربولوجيا، هذا العلم الذي تبلورت أفكاره خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ظهر بريئا و لكن تزامن ظهوره مع ظهور الاستعمار الأوروبي الحديث، و استعماله من طرفه كأبرز الأسلحة المستعملة في السيطرة على مساحات و شعوب كبيرة في مختلف مناطق العالم، جعل منه أحد أسوء العلوم أنذاك، حيث استعمل استعمالا غير بريئ، فانصبت الأبحاث الأوروبية خلال القرن 19م على دراسة المجتمعات الأخرى خارج أوروبا، وفق مقاربة تاريخية أنثروبولوجيا.

إن ارتباط نشأة الأنثروبولوجيا , و بداياتها التاريخية بالاستعمار , حيث كانت الدراسات تتم على المجتمعات بهدف معرفة بنيتها التركيبية, و طبيعتها الثقافية , ليسهل استعمارها , فأصبحت (الأنثروبولوجيا) أداة استعمارية بامتياز هدفها تسهيل مهمة الاستعمار في السيطرة و استعباد الشعوب، و قد حاولنا من خلال هذا البحث تسليط الضوء على علاقة الانثربولوجيا بالاستعمار؟ و ما مدى صحة نظرية أن الانثربولوجيا هي علم استعماري بالدرجة الأولى، ما هي الخدمات الجليلة التي قدمها هذا العلم في سبيل الهيمنة و السيطرة الاستعمارية الغربية على الكثير من الشعوب في العالم؟ هل قدمت الأنثربولوجيا الاستعمارية أية فائدة للشعوب المستعمرة؟.

.مفهوم الأنثروبولوجيا:

الانثربولوجيا هي كلمة انجليزية مشتقة من الأصل اليوناني ، و تنقسم كلمة Anthropology إلى قسمين: انثربوس Anthropos ويعني الإنسان و لوغوس Logos وتعني علم، إذن هو علم يصف الخصائص الإنسانية، البيولوجية، و الثقافية للنوع البشري عبر الزمن و في سائر الأماكن (فهيم، 1986، صفحة 14)، أو بعبارة أخرى هو علم يهتم بمعرفة الطبيعة الإنسانية وتغيّر الاختلافات في

الملامح الجسمية ولون البشرة، والعادات والتقاليد والديانات و الثقافات وغيرها من مظاهر الحياة، إنه التاريخ الطبيعي للجنس البشري (فريد، 2000، صفحة 127)، كما يقسم علماء الانثربولوجيا هذه الأخيرة إلى قسمين: يبحث الأول في الإنسان، ويعرف بالأنثروبولوجيا الطبيعية، في حين يبحث الثاني في أعمال الإنسان، ويعرف بالأنثروبولوجيا الثقافية، الحضارية (الشماس، 2004، صفحة 14).

2.نشأة علم الانثروبولوجيا:

لا شك أن دراسة الإنسان بمختلف مظاهره، كانت قديمة عند الإغريق و الرومان و حتى عند الصينيين و العرب المسلمين، و لكن بمفهومها الحديث يجمع مختلف علماء الانثربولوجيا إلى أن عصر النهضة في أوروبا بداية من النصف الثاني من القرن الخامس عشر و بداية القرن السادس عشر كانت الانطلاقة الفعلية لهذا العلم، لإستكشاف مناطق أخرى كانت إلى ذلك الوقت مجهولة لديهم، خاصة في قارتي إفريقيا و آسيا ثم العالم الجديد، ارتبط بالأساس بظاهرة الكشوفات الجغرافية، التي انطلقت من أوروبا حيث انتقلت دراسة الإنسان من مرحلة المنهج الفلسفي إلى المنهج العلمي التجريبي (الشماس، 2004، صفحة 26)، و ذلك من خلال الانتقال من القراءة في ما كتبه الإغريق و الرومان و العرب المسلمين، و الاستفادة من هذه المعارف إلى طريق الاحتكاك المباشر بهذه الشعوب، و معاينتها عن قرب، حيث وصف الأوربيون القبائل والشعوب المحلية في وإفريقيا وآسيا أمريكا، من حيث عاداتهم وتقاليدهم و أنماط معيشتهم وكل ما يتصل بثقافاتهم المادية المختلفة، و ذلك حتى تسهل السيطرة على مناطقهم (مهراز و العرجاوي، 2020، صفحة 27)، و لعل أبرز الرحلات، تلك التي قادها الرحالة كريستوف كولومبس إلى جزر الكاريبي في نهاية القرن الخامس عشر، و التي غيرت نظرة الإنسان إلى الإنسان من خلال تنوع الجنس البشري.

إن كلمة الأنثربولوجيا في حد ذاتها ظهرت في أوروبا في كتابات علماء الطبيعة خلال القرن الثامن عشر، و تعني دراسة التاريخ الطبيعي للإنسان، و قد يكون عالم الطبيعة الألماني جوهان بلومينباخ J.Blumenbach أول من أدخل كلمة الأنثروبولوجيا في منهج تدريس التاريخ الطبيعي بالمقررات الجامعية، كما استخدمه في الطبعة الثالثة من كتابه الذي صدر سنة 1795بعنوان " عن التنوعات الطبيعية الجوهرية بين البشر" (فهيم، 1986، صفحة 15).

إن هذا العلم الذي تطوّر سريعا خلال القرنين السابع عشر و الثامن عشر، ليظهر كعلم قائم بذاته و له أسس و قواعد مع بداية الحركة الاستعمارية خلال القرن التاسع عشر (الشماس، 2004)، حيث انطلق الرحالة و المغامرون بدعم من الجمعيات الجغرافية خاصة في لندن و باريس، إلى مختلف المناطق خاصة في إفريقيا، و لعل أبرز الرحلات التي أسهمت بشكل كبير في هذا العلم و أفادت كثيرا الحركة الاستعمارية رحلة مانغو بارك Mungo Park في نهاية القرن الثامن عشر و بداية القرن التاسع عشر، و فريديريك كيليو Frédéric Cailliaud سنوات 1818 و 1820، ثم رحلة روني كايي René Caillie سنتي 1824 و 1828، و بارث و ستانلي و ليفنغستون و غيرهم كثير، هذه الرحلات التي قدمت معلومات جد هامة عن الشعوب الإفريقية(Demoulin.F, 1931, p. 341) ، كانت من أبرز العوامل المساعدة على التوغل الاستعماري فيها.

من خلال ما تقدم عن نشأة علم الانثربولوجيا خاصة كعلم قائم بذاته، نعتقد يقينا بأنه كان في بداياته علما استعلائيا استعماريا، فلا يمكن إنكار دور المدرسة الأنثروبولوجية التي نشأت في ظل الاستعمار و التي خدمته ، و قدمت له المعلومات اللازمة حتى يتمكن من السيطرة على تلك الشعوب المستعمرة و نهب ثرواتها و استغلال مواردها و خيراتها.

3.الاستعمار:

هو ذلك الاستغلال و الاضطهاد السياسي و الاقتصادي و النفوذ الثقافي اللذان تتعرض لهما بلدان هي عادة أقل تطوراً في المجالات الاقتصادية و الاجتماعية من الطبقات السائدة في الدول المستعمرة و التي تكون أكثر تطوراً (العتابي، 2015).

لم يكن الاستعمار وليد العصر الحديث، و إنما هو قديم قدم وجود الانسان، و لعل التوسعات الفارسية، الرومانية و حتى الصينية في العصور القديمة تظهر ذلك الشكل القائم على التوسع المستمر لأراضي الإمبراطورية (بوحسون، 2011، صفحة 45)، أما الاستعمار الحديث و الذي ظهر مع عصر النهضة، و القائم بالدرجة الأولى على النظرة الاقتصادية (لكليرك، 1990، صفحة 21) تزعمته في البداية كل من اسبانيا و البرتغال، ثم في مرحلة ثانية كل من فرنسا و انجلترا و هو الذي يوصف بالاستغلال البشع في كل المجالات لما أصطلح عليه في الدراسات الأنثربولوجية بالعالم البدائي، استغلال و

هيمنة قائمين على تهميش السكان الأصليين لتلك المناطق المحتلة و استغلال خيراتها و نهب ثرواتها (مهراز و العرجاوي، 2020، صفحة 28).

4.علاقة الأنثربولوجيا بالاستعمار:

تقوم الانثربولوجيا بمهمة دراسة " الآخر" و التعرف على مقوماته و ثقافاته، ثم ترتيبه و تصنيفه، و ذلك تمهيدا لإستعماره و نهب ثروته (بوحسون، 2011، صفحة 46)، لذا لا يمكن إنكار الخدمات المتبادلة بين الاستعمار و الأنثروبولوجيا ، فكما قدمت الأنثروبولوجيا خدمات جليلة للحركة الاستعمارية ، فلقد استفادت الأنثروبولوجيا من الحركة الاستعمارية و التي كان لها أثر كبير في تقدم الدراسات و المناهج الأنثروبولوجية . فمن المعروف أن القرن 19 كان يمثل قرن التوسعات الاستعمارية بهدف استعمار المجتمعات الأخرى من أجل احكام السيطرة عليها و استغلالها سياسياً و اقتصاديا و ثقافيا و دينياً ، و من هنا نشطت الدراسات الأنثروبولوجية بأهدافها النظرية و التطبيقية متخذة من هذه المجتمعات الصغيرة مجالاً لدراستها (العثمان، 2002، صفحة 72).

لقد تحولت (الأنثروبولوجيا) أداة بيد القوى الاستعمارية في البلدان الأوربية التي كانت تشهد مع توسع البحث الأنثروبولوجي توسعاً جغرافياً مذهلاً حملها من حدودها الضيقة لتجد لها موطئ قدم في كل بقاع العالم، و مواقع و مساحات جغرافية تفوق مساحاتها الأصلية بمرات . إن عصر الاستعمار القديم ، هو عصر البحث عن مستعمرات ، و أسواق ، و عن أيدٍ عاملة ، و عن مواد خام ، و عن أسواق جديدة لتصريف منتجاتها غير المتوفرة في أراضيهم كل هذا كان المنطلق الاساس للسياسات الاستعمارية الأولى. و الاستعمار بشكل عام لم يكن عسكرياً و حسب، بل كان استعماراً شكلت الثقافة و في أكثر الأحيان ابرز أسلحته (العتابي، 2015).

لقد بدأ علم الأنثروبولوجيا و تحت تأثير الاستعمار المصطبغ بالصبغة الدينية المسيحية (التبشيرية) بالتعرف على الشعوب التي سيستعمرها و من كل جوانبها، لكي يتعرف على كيفية التعامل معها ، و بالتالي الهيمنة عليها.

لقد اعتمد المستعمرون و تحت تأثير المؤسسات التبشيرية، على علماء الأنثروبولوجيا في دراسة ديانات الشعوب، و طباعهم الاجتماعية و النفسية، و مواردهم الاقتصادية، كي يعرفوا كيف تفكر هذه الشعوب، و كيف تعيش، و ما هي أهدافها، و ما الذي يمكن أن يجتذب الناس في هذه المجتمعات. و

مما لا شك فيه أن الدراسات التي قام بها علماء الإنسان لهذه البلدان قد أفادت الدوائر الاستعمارية فائدة كبرى في تسهيل السيطرة عليها ، فكانت نتيجة ذلك انطلاق الحركة الاستعمارية الكبرى و التي طالت أكثر من نصف الكرة الأرضية.

5.مراحل الدراسات الأنثربولوجية الاستعمارية:

يمكن تقسيم الدراسات الأنثربولوجيا الاستعمارية إلى ثلاث مراحل رئيسية، انتقل فيها علم الانثربولوجيا، من دراسات و تقارير أعدها مستكشفون و رحالة، إلى دراسات و تقارير أعدها ضباط و قادة الحملات العسكرية ، بالاضافة إلى البعثات العلمية و التبشرية، و في مرحلة ثالثة دراسات علمية أكاديمية متخصصة ، كلها خدمت السيطرة الاستعمارية بشكل أو بآخر:

1.5.مرحلة الدراسات الاستكشافية:

عادة هي مرحلة تسبق بداية الاحتلال، و انكبت الدراسات فيها على معرفة الموقع الجغرافي، و طبيعة السطح، و العادات و التقاليد، و جمع معلومات وافرة عن المجتمع تخص طبيعة المبادلات والطرق التجارية، و أهم الثروات و التجار و الأسواق، وكل ما يتعلق بالحياة اليومية. هذه الدراسات الاستكشافية استوجبت القيام بمجموعة من الرحلات، نظمت في البداية من قبل أشخاص غير باحثين كالقناصل والتجار و الجواسيس الذين كانوا يسجلون ملاحظاتهم واستنتاجاتهم عما يجري في هذه الدول ويبعثونها كتقارير إلى بلدانهم الأصلية (فوري، 1997، صفحة 85).

2.5. مرحلة الدراسات العسكرية:

و هي دراسات وصفية أنجزها ضباط و قادة عمليات الاحتلال و انطلقت تقريبا في السنوات الأولى لعملية الاحتلال، و كان هدفها رسم الخرائط الطبوغرافية، و إنجاز تقارير يومية للحملات العسكرية تضمنت الكثير من المعلومات الدقيقة عن القبائل و عدد سكانها و طبيعة أنشطتها وسلوكها وأخلاقها وطباعها وأصلها العرقي، كما لا يمكن هنا أن نغفل دور البعثات العلمية ، التي رافقت هي الأخرى عملية الاحتلال، و قد قامت بدور مزدوج، البحث و التنقيب عن الآثار المادية التي تعود لفترات قديمة و محاولة ربطا بالاستعمار، و البحث في اللغة و الألسن خدمة لأغراض استعمارية (بوحسون، 2019، صفحة 70) إضافة إلى البعثات التبشرية، هي الأخرى التي بحثت في المعتقدات و الأديان، و انكبت على نشر المسيحية بمختلف مذاهبها، فقد سجلت تقاريرها الكثير من المعلومات عن مختلف ديانات الشعوب

المستعمرة و معتقداتها، و قدمت أدوارا مختلفة سهلت بها عملية السيطرة و الاحتلال (العتابي ل.، 2015).

3.5.مرحلة الدراسات العلمية المتخصصة:

هي الدراسات التي يمكننا تصنيفها على أنها كتابات اكاديمية متخصصة، و بالرغم من أنها كذلك، إلا أنها بقيت في خدمة المصالح الاستعمارية، و هي دراسات منظمة على المستوى المنهجي و التحليلي، تبلورت خلال المرحلة الاستعمارية إلى كتابات أثنربولوجية سوسيولوجية، قامت على معرفة أدق التفاصيل في دراسة البنيات الاجتماعية و الاهتمام بالنسق القبلي، وكذلك بالدور الديني والاجتماعي والاقتصادي للزوايا، و المؤسسات الثقافية، و فعلا منحت هذه الدراسات دفعا قويا من أجل التحكم أكثر في هذه المجتمعات، و استغلت كإطار معرفي في الكثير من الاجراءات الادارية الاستعمارية (بوحسون، 2019، صفحة 71).

6. قراءة نقدية للكتابات الأنثربولوجية الاستعمارية:

لقد خضعت المجتمعات المستعمرة خلال الفترة الاستعمارية إلى الوصف و الدراسة، و كانت طبيعة الفرد و سلوكه و لغته و دينه و طريقة عيشه، و تركيبته العرقية، محلا للوصف و التنظير، و قد ارتبطت هذه الدراسات بالمصلحة الاستعمارية أكثر من ارتباطها بالنظرة الموضوعية، خاصة إذا علمنا أن من قام بهذه الدراسات لم يكونوا أنثروبولوجيين، بل كانوا مستكشفين، مغامرين، و ضباط و قادة الحملات العسكرية، و أولى الملاحظات من خلال هذه التقارير العسكرية و هذه الدراسات:

1.6. النظرة الاستعلائية:

كثيرا ما تميزت دراسات القرن الثامن عشر و التاسع عشر المتعلقة بالمجتمعات في العالم الآخر – كما يدعيه الأوربيون – بالنزعة العنصرية، فالكثير من منظري الاستعمار أمثال ألكسيس دو توكفيل أو حتى الأدباء و المفكرين أمثال: الفونس دي لامارتين (لامارتين، 1864، صفحة 64) أو فيكتور هوغو أو غيرهم نراهم يحللون و يفكرون وفق معايير تحقر من شأن الشعوب غير الأروبية، معتبرين إياها خارجة عن السياق الحضاري و التاريخي لأروبا المسيحية المتقدمة و متطورة في جميع المناحي الحياتية، و كان الكثير من المفكرين في تلك الفترة، واعين بأنهم يشهدون و يصنعون حقبة تاريخية تتميز بتفوق الجنس الأوروبي على كل الأجناس الأخرى (غرانميزون، 2008، صفحة 12، 13)، و لعل ظاهرة الرّق تعتبر

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

أبرز مثال على ذلك، هذا إضافة إلى أن فكرة الاحتلال كانت في أذهانهم من فترات طويلة، فهم في حاجة إلى توسع جغرافي، اقتصادي، ثقافي، و من أجل جلب الحضارة إلى الشعوب المتوحشة البربرية أو البدائية كما لقبوها، و هم في نظرتهم هذه قد سطوا على تاريخ طويل من الحضارات المتعاقبة على هذه المجتمعات.

2.6.نفي هوية المجتمعات المستعمرة و تبرير الاحتلال:

لطالما عملت الدراسات الأنثربولوجية الاستعمارية تحت ضغط ايديولوجية معينة (نظرة استشراقية بالأساس) في محاولة تفكيك النظم الاجتماعية للدول المستعمرة و التركيز على عامل اللغة و الدين، أو بعبارة أخرى ضرب مقومات الهوية، حتى يتسنى لها السيطرة على تلك المناطق بكل يسر، كما حاولت هذه الدراسات إلغاء فترات تاريخية عظيمة من تاريخ تلك الشعوب، و رميها بتهمة التخلف و الرجعية ففي الجزائر مثلا: حاولت جل الكتابات الانثربولوجية الاستعمارية إلغاء فترة التاريخ الاسلامي، و حاولت ربط المرحلة مباشرة بفترة الإحتلال الروماني من أجل تبرير الاحتلال و شرعنته، و ركزت الكثير من دراساتهم على منطقة معينة، و عمدوا إلى تقسيم المجتمع إلى ثنائيات (سياسة فرق تسد) فظهرت ثنائية عرب – بربر، و ضرورة تأليب طرف ضد أخر، و من المقولات التي يرددها منظروا الانثربولوجيا الاستعمارية أن العرب يكرهون البربر، و البربر يكرهون العرب، و قد كانت هذه الثنائية الوتر الحساس الذي استعمله منظروا الاستعمار، من خلال خلق ما يسمى " بالأسطورة القبائلية " و التي تعتبر حسب فيليب لوكا و جون كلود فاتان Vatin Philippe LUCAS . Jean-Claude في كتابهما جزائر الأنثربولوجيين L'Algérie des Anthropologues ابتداعا غير عقلاني، قائمة على استدلالات علماء مزيفين، و هادفة إلى احتواء سياسي و اقتصادي (Lucas & Vatin, 1982, p. 14)، فمن خلال التنظير لأصل البربر و اختلافه عن أصل العرب و التركيز على الاختلاف في اللغة و الصفات الجسمية حاول منظروا الاستعمار في البداية الاستعانة بالقبائل من خلال تمجيد هذا العرق، و اعتبروا العرب غزاة لا فاتحين، كما حاولت تقزيم دور الجزائر العثمانية و وصف العثمانيين بالمحتلين، و اعتمدوا على العهد العثماني الأخير حيث عرفت الدولة فترة الضعف، كما نسبوا هذا الضعف إلى الدين الاسلامي، فقد وصفوه بالعامل الأساسي في تخلف المجتمع، و منه حاولوا فهم عمل المؤسسات الثقافية التقليدية كالأوقاف و الزوايا و الطرق الصوفية، ثم تحويل هذا الدور إلى خدمة الأغراض الاستعمارية، في

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

هذا الاطار دائما تم التركيز على المرأة و دورها في المجتمع، و وصف حالها، و إعتبار مكانتها أقل من الرجل و رميها بأحكام مشينة، تلك هي النظرة الاستعمارية المقيتة التي أراد من خلالها الاستعمار تفتيت المجتمع و القضاء على أهم خصائصه، و نفي هويته، و محاولة ربطه جغرافيا و تاريخيا بالضفة الشمالية للبحر المتوسط .

3.6.إدعاء مهمة التمدين و نشر الحضارة:

يقول دور كايم في كتابه "تقسيم العمل الاجتماعي 1869" عن المجتمعات المستعمرة أنها عبارة عن "عشائر لم تتجاوز الحد الأدنى من التنظيم" بمعنى أنها قبائل همجية غير متحضرة تتميز بالبدائية، مما يقتضي تطويرها عن طريق تلقينها ثقافة المستعمر، إنها شعوب تسكن مناطق سميت بالمجهولة INCONNU، حتى أنهم ألفوا كتب بتلك المسميات مثل كتاب " المغرب المجهول" لأوقيست موليراس (Moulieras، 1895)، هذه الدراسات و غيرها روجت لما يسمى "بتمدين المجتمع أوالرسالة التمدينية، ،فهذا الوصف يهدف إلى ترويج صورة مرعبة عن شعوب تلك المستعمرات ،حيث ألقى المستعمر فرضية سعى لتحقيقها ميدانيا من خلال الكتابات التاريخية و الانثروبولوجية، تلك الفرضية القائلة بأن الدين الإسلامي لا يمكنه مواكبة العلم و العصر، أي أن الدين الإسلامي مناهض للمدنية،فما كتب عن الإسلام كدين وعن الشعوب التي تدين به يوضح حجم المؤامرة و المحاولات الجادة لخلق القطيعة بين الإسلام كدين صحيح و المجتمع كمتدين به، هذا التمدن الذي سعت الدول الاستعمارية إلى نشره سخرت له جيشا آخر باللباس المدني ضم في صفوفه لفيفا من خبراء و علماء و مختصين في علوم الإنسان (انثروبولوجيين) وعلوم الطبيعة،استخدموا آخر ما توصل إليه العقل الأوربي في القرن 19 لأغراض التسلط و التدجين، و ساهم أولئك المجندون باللباس المدني في التخطيط للمجازر و حرضوا عليها علنا، بل قال بعضهم أنها من حق المنتصر، و ارتكبوا باسم المدنية و التحضر الكثير من الجرائم و أبادوا الكثير من الاجناس البشرية.

في هذا الصدد يجب أن نستشهد بأقوال منظريهم فهم أبلغ من عبر عن حجم الدمار و التخلف الذي لحق بهذه الشعوب، يقول: الكسيس دوتكفيل في التقرير الذي قدمه باسم لجنة التحقيق التي قدمت إلى الجزائر 1847م:"...لقد وضعنا أيدينا على أموال الوقف الموجه للصرف على التعليم و الأعمال الخيرية، قضينا على المدارس، التي كانت موجودة، شتتنا مجامع العلماء، لقد أطبق الظلام في كل مكان حللنا

فيه..." و يختم ذلك بقوله: "لقد جعلنا المجتمع الإسلامي أكثر توحشا و بربرية على ما كان عليه قبل أن يعرفنا" (طوكفيل، 2008). هذا الكلام قد يلخص و بشكل واضح و جلي إدعاء نشر الحضارة والتنوير التي روج لها الاستعمار من أجل تبرير احتلال تلك الشعوب.

7.مساهمة الدراسات الأنثربولوجية في تاريخ الشعوب المستعمرة:

هل يمكن بناء على ما سبق أن نجزم قطعا و نحكم بالاعدام على الدراسات الأنثربولوجية الاستعمارية؟ ، صحيح أن هذه الدراسات كان أساسها استعماريا بحتا، و قدمت خدمات جليلة للدول الاستعمارية، أقلها المساعدة على السيطرة و الاستغلال و نهب الثروات، و تجنب رد فعل سكان تلك المستعمرات التي سيطروا عليها من خلال معرفة طباعها و نفسياتها، و تعلمت الدول الاستعمارية و حفظت الدرس جيدا من تجاربها السابقة، ففرنسا مثلا لم تكرر تجربة استعمار الجزائر في مستعمراتها الأخرى، خاصة الاستعمال المفرط للقوة، رغم ذلك إلا أننا لا ننكر دور الدراسات الأنثربولوجية في حفظ جزء من تاريخنا بغثه و سمينه، بل إننا ندين لتلك الدراسات رغم ما فيها من عيوب بالدور الذي لعبته في الحفاظ على ذلك التراث في كل مناحي الحياة و لولاها لضاعت الكثير الكثير من المعلومات التي لا يمكن للشعوب أن تستغني عنها، هذه الدراسات التي قدمت لنا حجم هائل من الوثائق و الكتب و الدراسات التي توجد بها الكثير من المفاهيم و النظريات عن الجنس البشري و الحضارة الانسانية ، و أوجه الحياة اليومية و مشاكلها مما لا يزال يشغل بال الباحثين الأنثربولوجيين المعاصرين، كما يستطيع أن يقدم لنا هذا التراث أرضية و أفكار و معلومات جديدة في إطار الجمع بين الفكر التقليدي لهذه المجتمعات و الأمثربولوجيا المعاصرة (فهيم، 1986، صفحة 201)، حيث يبقى الدور على تكاثف جهود الانثربولوجيين و المؤرخين في غربلة و إعادة صياغة انثربولوجيا حقيقية، بعيدة عن الإيديولوجية، يمكن استغلالها في تنمية تلك الشعوب، و إسقاط كل تلك الصفات و التهم التي نعتها به انثربولوجيو المدرسة الاستعمارية

إضافة إلى الحفاظ على بعض الموروث الثقافي و التاريخي لهذه الشعوب فقد ظهرت نخبة من الأنثربولوجيين الغربيين خلال فترة التحرر بعد نهاية الحرب العالمية الثانية دافعت عن تلك المجتمعات المستعمرة و لعل أبرز مثال عن ذلك : فرانتز فانون الذي دعى إلى التركيز على الثقافة الوطنية التي تعرضت للإحتقار من طرف الأنثربولوجيين الفرنسيين، و ضرورة إقرانها بالكفاح المسلح، فالثقافة الوطنية هي التي تغذي الكفاح التحرري الذي يزيل الاستعمار.

و مع أن الأنثربولوجيا قد أخذت اتجاها تحريريا و استقلاليا منذ النصف الثاني من القرن العشرين، إلا أن ذلك لم يمنع من احتمالات استخدام نتائج الأبحاث الأنثربولوجيا استخداما سيئا يضر بالشعوب موضع الدراسة (أوراغي، 2013، صفحة 267)، بل لازالت بعض الدول الامبريالية تستخدمها في حروبها، و هي في ذلك مثل أي علم أو منبع للمعرفة سلاح ذو حدين، يتوقف استخدامه على عدّة عوامل و ظروف، قد لا يكون للأنثربولوجيين أنفسهم قدرة على التحكم فيها (فهيم، 1986، صفحة 204).

لا شك في أن مشروع (عسكرة الأنثروبولوجيا) الذي اعتمده الجيش الأمريكي على سبيل المثال في حروب العراق و افغانستان تحت ما يسمى ببرنامج) إقحام علماء الأنثروبولوجيا في ميدان الحروب) ((HTSيمثل أوضح صور توظيف الأنثروبولوجيا التطبيقية في ميدان الحروب و النزاعات).

و يشرح العقيد الامريكي (ستيفن فونداكارو) أهداف هذا المشروع بالقول : (إن مهمة العلماء تقوم على تقديم فهم واضح للمشكلات التي يواجهها الجيش مع السكان المحليين ، حيث يتلقى الضباط هذه المعلومات و يقررون بموجبها طبيعة الإجراءات العسكرية التي عليهم اتخاذها) (العتابي ل.، 2015).

خاتمة:

يعتبر علم الأنثربولوجيا علم حديث النشأة، ظهرت معالمه الأولى مع طلائع الحركة الاستعمارية التي انطلقت من أوروبا في اتجاه العالم الآخر: العالم الجديد ، افريقيا ، و آسيا، و هي شعوب مجهولة في نظر الأوربيين، لذلك كانت الدراسات الانثربولوجية لهذه الشعوب خاضعة لهيمنة النظرة الاستشراقية القديمة، و القائمة على النظرة الدونية و الاستعلائية لها. إن ارتباط نشأة الأنثروبولوجيا , و بداياتها التاريخية بالاستعمار , حيث كانت الدراسات تتم على المجتمعات غير المتحضرة بهدف معرفة بنيتها التركيبية , و طبيعتها الثقافية , ليسهل استعمارها , فأصبحت (الأنثروبولوجيا) أداة استعمارية بامتياز هدفها تسهيل مهمة الاستعمار في السيطرة و استعباد الشعوب، و قد مرت هذه الدراسات بثلاث مراحل كبرى: مرحلة الدراسات الاستكشافية قادها مستشكفون و جواسيس، ثم مرحلة الدراسات العسكرية، و قد أعدّها ضباط و قادة الحملات العسكرية، و أخيرا مرحلة الدراسات المتخصصة الاكاديمية، و هي التي تبلور فيها علم الأنثربولوجيا بشكل منهجي قائم على التحليل.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

إن الباحث المدقّق في الدراسات الأنثربولوجية خلال الفترة الاستعمارية، سيلاحظ بما لا يدع مجال للشك، تلك النظرة العنصرية المقيتة، و التي تعتمد على تفوق الجنس الأوروبي على بقية الأجناس، و في هذا الاطار عملت تلك على الدراسات لترسيخ هذه النظرية فاتهمت مجتمعات العالم الآخر بالبدائية و التخلف، و أوعزت سبب ذلك إلى الدين بشكل خاص، كما قامت تلك الدراسات بتبرير الاستعمار عن طريق نظرية التمدين و دعوى نشر الحضارة، و لأجل ذلك كان على هذه الدراسات أن تعمل على نفي هوية الشعوب المستعمرة و تفكيك مجتمعاتها.

لكن رغم ذلك فالدراسات الانثربولوجية الاستعمارية قدمت لهذه المجتمعات فائدة كبيرة تتمثل في الحفاظ على بعض موروثها الثقافي و التاريخي، و لولاها لما استطاعت تلك الشعوب معرفة الكثير عن ماضيها الذي يمكن الاستناد عليه لبناء مستقبلها، و في هذا المجال يمكن أن يتعاون الانثربولوجيين و المؤرخين و الاستفادة من تلك الأبحاث في محاولة لتخليصها من ما علق بها من شوائب الاستشراق، و صياغة انثربولوجيا جديدة، تخدم التنمية و التطلع لمستقبل أفضل.

قائمة المراجع: ت†تت

1. أوراغي أحمد: الانثربولوجيا و الاستعمار، قراة في صور الجزائرية في المؤلفات الأنثربولوجيا الاستعمارية، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية و الاجتماعية، المجلد 4 العدد 2، الجزائر، 2013.
2. ألكسي دو طوكفيل: نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال و الاستيطان، ترجمة: إبراهيم صحراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008.
3. ايوب مهراز و كريم العرجاوي: التاريخ و الأنثروبولوجيا بالمغرب المعاصر، مجلة جيل العلوم الإنسانية و الاجتماعية، العدد 61 ، المغرب، 2020.
4. بن سليمان فريد: مدخل إلى دراسة التاريخ، مركز النشر الجامعي، 2000,

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

5. بوحسون العربي: الاستشراق و الأنثروبولوجيا و الاستعمار،مجلة الإنسان و المجتمع، العدد 02 ، جامعة تلمسان، ديسمبر 2011.
6. بوحسون العربي: الانثربولوجيا من علم الاستعمار إلى علم التنمية، مجلة الدراسات الثقافية و اللغوية و الفنية، العدد 10، برلين، المانيا، 2019.
7. جيرار لكليرك : الانثربولوجيا و الاستعمار، ترجمة جورج كتورة، ط 2، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع، بيروت، 1990.
8. العتابي ليث عبد الحسين: الأنثربولوجيا الاستعمارية، موقع أنثربوس، https://www.aranthropos.com/?p=2743 ، تاريخ الاطلاع 28 ماي 2020.
9. عيسى الشماس: مدخل إلى علم الإنسان، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004.
10. غرانميزون أوليفي لوكور: الاستعمار الابادة، ترجمة نورة بوزيدة، دار الرائد للكتاب، الجزائر 2008.
11. فهيم حسين: قصة الانثربولوجيا، فصول في تاريخ الإنسان، عالم المعرفة، الكويت، 1986.
12. فرونسوا فوري: التاريخ و الاثنولوجيا، ترجمة محمد حبيدة، مجلة أمل للتاريخ والثقافة والمجتمع، العدد 09، المغرب، 1997.
13. وسام العثمان: مدخل إلى الانثربولوجيا، الأهالي للطباعة و النشر و التوزيع، 2002.

14. Demoulin.F: L'exploration du Sahara, Annales de Géographie, Paris, 1931.
15. Lucas Philippe; Vatin, Jean-Claude: L'Algérie des Anthropologues, François Maspero, Paris, 1982.
16. Moulieras Auguste: Le Maroc Inconnu, Librairie Coloniale et Africaine, Paris, 1895.